العباسة بنت المهدي

وصف قلادة كانت تزين جيد العصر الثاني من الهجرة

بقلم

صاحبة السمو الأميرة الكاتبة (قدرية حسين

نقله عن التركية

عبد العزيز امين الخانجي

كلمة المعرب

الرسالة التى أقدمها اليوم لاخواني الناطقين بالضاد ، قطعة من كتاب كبير ، يقع فى مجلدين من وضع صاحبة السمو الاميرة المصرية الجليلة قدرية حسين ، اختارت فيهما تسعة من شهيرات النساء فى العالم الاسلامي فذكرت تراجم حياتهن بأسهاب وتطويل واجملت سيرة احوالهن، باسلوب تحليلي بديع يدل على اطلاع واسع وتبحر عميق فى تاريخ الامم الاسلامية .

ومما يزيد اعجاباً بقدرة الاميرة وعلو كعبها فى فنون العلوم وصنوف الآداب اختيارها الموضوعات العويصة المبعثرة فى ثنايا الصحف وبطون الكتب مما يتعذر على المطالع جمعها ، اللهم إلا على الذين أتوا الحكمة ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

يجمع هذا الكتاب شخصيات متعددة، وتفسيات مختلفه بين شاعرة وأميرة وكاتبة وزاهدة . كلها صفحات من التاريخ الاسلامي مشرقة الجوانب زاهية زاهرة

عربت لاخواني فى العام الماضي احدى هذه الصفحات

المشرقة من تاريخ الأندلس وهى سيرة الاميرة صبيحة ملكة قرطبة . وما كادت مجلة النيل الغراء تنشرها تباعاً وتنتهي منها حتي طلب الكثيرون نشرها على حدة فى كتاب ليعم نفعها . فدفعت الاصول الى المطبعة اليوسفية ، وهى المطبعة الديمقراطية التى من مبادئها أن تطبع الكتاب عدة آلاف لتوزيعه بين الجمهور بأثمان مخفضة . وسرعان ماظهرت ثمرات ناضجة لهذا العمل النافع لانه ما كاد يظهر للجمهور حتى نفذت طبعته الاولى فى أقل من عام وأعيدت منذ أيام .

ماعمدت الى هذه الطريقة لمنفعة خاصة أو لغرض مادي وانما أردت شيوع فضل الاميرة وذيوع كتبها المملوءة بروح الديموقراطية بين أفراد الشعب

ولقد دفعنى تشجيع القوم الى اتمام تعريب الاقسام الاخرى من الكتاب . وها أنذا أتقدم اليهم بصفحة أخرى من صفحات التاريخ الاسلامي ، بشخصية أميرة من أميرات العصر العباسى ، لها ذكر دائم الخفقان في بطون التواريخ وأسفار السير هى العباسة بنت المهدي ، صاحبة الفاجعة الاسلامية التى حدثت فى عصر الرشيد وخلطت بياض شهرته بسواد قاتم وقد اعتمدت

الأميرة فى ترجمتها على أمهات كتب التاريخ وجعلت محور القصة مرتكزاً على تلك النكبة المشهورة التى نكبت بها البرامكة . رب معترض يقول انها من الحكايات المدخولة على الرشيد ويذهب جرياً مع قول ابن خلدون اذ قال في مقدمته ماهو بالنص :

«ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانها من معاقرته إياها الخمر أذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما فى مجلسه وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها ، زعموا فى حالة سكر فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب . وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبدالله ابن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ، ابنة خليفة وأخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ومنزل الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد

ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش. فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى العجم. وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها »

ألا ترى أيها القارىء أثر التعصب والتصلب فى هذه الأقوال . ولا أدرى لماذا يستبعد ابن خلدون اتصال جعفر بالعباسة المجرد انها عربية شريفة سليلة من بيت الخلافة ؟ ألم يفكر فى أبهة البرامكة وعزهم وما وصلوا اليه من رفعة شأن وسمو أدب ؟ ألم يفكر في اختلاط عائلة البرامكة ببيت الخلافة ، ذلك الاتصال الوثيق وما اليه من تذليل أمثال تلك الموانع التى ذكرها ؟ اللهم ان جعفراً شاب زكي ، وسيم الطلعة ، ذا مهابة ومكانة من نفس الخليفة والشعب ، جمع بين الادبين ، أدب العلم ، وأدب النفس ، ألا تكفي كل هذه

المغريات لكسر قيود التقاليد العتيقة لأميرة مثل العباسة تربت في أحضان العز والرفاهة ؟ . . . على ان ابن خلدون قد ناقض نفسه بنفسه فقد ذكر بعد تلك الكلمات الاولى التي أملاها عليه التعصب الشديد والتي نال فيها من قدر البرامكة وشأنهم مانال ، هـذه الكلمات التي ننقلها للقراء للفائدة :

« وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولى عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان

يدعوه يا أبت فتوجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدلة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وسيرت الى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا المعاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأمضوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى جهادهم الوتير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر فى نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشىء الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكامن الحقود التي لقتها منهم صغائر الذلة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفة كقصتهم فى يحيى

بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور . ويحيى هـذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ماذكره الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والي نظره فحبسه مدة ثم حملته الذلة على تخلية سبيله والاستبداد بحمل عقاله حرما لدماء أهـل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه . وسأله الرشيد عنه لما وشى به اليه نفقطن وقال أطلقته فأجدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم والقيت عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلا للآخرين أيامهم .

ألا ترى معي ايها القارىء مابين قوله الاول وجملته الثانية من البون الشاسع . حمل عليهم في الاولى حملة شعواء وخسف بهم الارض حتى ليخيل للقارىء انهم من الصغار بحيث يستنكف فرد من افراد الشعب الاهتمام بهم وقد رفعهم في اقواله الثانية الى مافوق منصب العرش وجعل الكلمة

كلمتهم والقول قولهم واظهر الحقيقة الكامنة في تلك العظمه حتى يستشف الانسان من خلال سطوره ان البرامكة هم اصحاب الخلافة الحقيقية

على انني مهما أجزلت القول فلا أوفي الموضوع حق وفائه فلنترك ذلك للأسرة القديرة على مثل هذا الموضوع وسوف يرى القارىء من رسالتنا ما يثلج صدره ويكشف له عن وجه الحقيقة ان شاء الله ؟

القاهرة ١٢ يونيو سنة ٩٢٣ عبد العزيز الخانجي

الفصل الاول

أى قارئي العزيز

انك لو سرحت الطرف فى حدائق الادب الافرنجى، مفكراً فى أشعارهم العالية، مدققاً النظر فى آدابهم النفيسة، ومؤلفاتهم القيمة وما يتخللها من مزايا ومآثر وما تتضمنها من درر ألفاظ وغوالى حكم، ممتعاً نفسك بعبير الذكريات القديمة المتضوعة من جوانبها، تعلم وتشعر بأن لكل أمة من الامم وقائع خاصة بها، وحوادث اشتهرت عنها تتمشى مع طبيعتها الشعرية وتمتزج بحالتها الروحية

تلك الصفحات المشرقة الماضية، تلك الحوادث المفجعة والوقائع المؤلمة تصقلها الايام والعصور فلا تصل اسماعنا إلا وقد ازدادت روعة وجمالا فنصغى اليها بشيء من الدهشة تتملك نفوسنا

اننا نعجب من أبهة تلك الوقائع، وندرة مافيها من الشخصيات، فنشعر بلذة معنوية تبطن أعماق نفوسنا، فنغوص لجتها بارتياح ولذة

من الذى يصور لنا تلك الوقائع وينفخ الروح فى أشخاصها فيصيرها خالدة لاتزول مدى الدهر ولا تمحى أبد الآبدين ؟ هم: أهل الفن وأرباب الخيالات ، هم الشعراء والادباء . فالكاتب بقلمه ، والمصور بريشته، والحفار بمثقبه، والموسيقى بالحانه والشاعر بأوزانه ، يخرجون لنا صوراً حية بارزة من تلك الحوادث المؤلمة والوقائع المدهشة ، لانكاد نراها أو نسمع بها ، أو نلمسها فى صورهم وآثارهم وأقوالهم ، حتى تسيل نفوسنا رقة ، وتخفق قلوبنا شفقة ، على أبطالها الذين تذهب نفوسهم ضحية على مذهب الشهوات والمطامع

الفن ، هو الذى يجعلنا نفتتن بتلك النواصي الحزينة الحلوة . الفن ، هو الذى يصيرنا نعتقد بأن لهذه الشخصيات جمالا نادراً مقطوع القرين : فننجذب الى قصص حياتهم المملوءة بالاعاجيب وحالما نألف بهم نحن اليهم ونحبهم . أما أسماؤهم الاعجمية فهي كالتماثيل الغريبة فى طريق لغتنا الاصلية موقعهم الممتاز فى تلك الحوادث له أثر بليغ فى نفوسنا . ولذلك لانكاد نذكرهم إلا بشيء من اللوعة بين الآهات والزفرات

فتنتنا الآداب الغربية فسرنا مع تيارها وأصبحنا نقلد كل أساليبها. فهل أصبنا المرمى ؟

لو وقفنا عند حد ترجمة ونقل الموضوعات التي تنقصنا والتي تغرينا على نشر العلوم والمعارف بين ظهرانينا. وتأخذ بيدنا الى مناهج الرقي والفلاح. لو وقف بنا الامر عند هذا الحد، لكان عملنا صالحاً وسعيناجميلا. ولكن استولت الاذواق الغربية على مشاعرنا واحساسنا وأرواحنا فنسينا ما يحيط شخصيتنا من لطف وظرف. وبذلنا مافي وسعنا من ارادة وعزم للتشبه بملقنينا. حتى تخدرت أعصابنا بعدوى مرض (البانورزيزم) أي التقليد الاعمى. وليتنا استطعنا أن نروى ظمأنا أو ليتنا نفكر في الزمن الذي نضيعه هباء في سبيل الوصول الى هذه الغاية

لو أرجعنا البصر كرة واحدة الى ماضينا المجيد. ذلك الماضي المشرق بأنوار المجد والفخار. لعلمنا مقدار خطئنا ولاسفنا من استخراج معلوماتنا من دفائن الادب الغربي بحسب خزائن آثارنا الشرقية مملوءة بالكنوز والنفائس التي تبهر الابصار ببريق لمعانها واشراق ضيائها. في زوايا تلك

الخزائن بذور مواهب كامنة لايمكن للغرب أن يجود بها للشرق يوماً من الأيام .لو نظرنا اليها وأعرناها جانباً من العناية والالتفات لكنا الآن أصحاب ثروة قومية حفظها لنا الجدود بالمتاعب والآلام

فقل لي بربك أما ترى ان ماتركه لنا السلف خير مما نستعيره من الغير . عندنا من الكنوز شيء كثير : أموال ومجوهرات خالصة من كل غش وخداع عليها طابع الاسلام، لم تمسها الايدي ولم تنظرها الاعين حتى الآن

لو أردنا لاستطعنا أن نحيك لانفسنا جلاليب مهفهفة من تلك الانسجة الحريرية النادرة . ولو شئنا لجعلنا تلك الاقمشة الثمينة ملابس تتمشى مع الطراز العصري ولو شئنا لكسونا تلك المخلفات القديمة احسن الصور والاشكال التي تجعلها من اجمل صناعات اليوم وبذلك نعقد لانفسنا ألوية الظفر والفخار في ميادين الفن إننا لو اردنا لاستفدنا من شخصيات عديدة ووقائع كثيرة ذات اثر كبير . فكل الادوار الاسلامية مملوءة بالحوادث العظيمة وقد اشتهر كل عصر من عصور تلك الادوار بأسماء ابطال يحركون في

النفس عوامل الشفقة والاعجاب

ان فى سلسلة الحوادث المفجعة التي تمت أيام الرشيد وانتهت بموت العباسة وختمت بمأساة البرامكة ، لعبراً تزرى بأشعار (روميو) وما يتخللها من حب وصداقة . وعظات تطفىء مايتخلل قصة (جوليت) من أنوار الاخلاص والوفاء . لم لاتتناول الاقلام هذه القصة ؟ ان هذين القلبين الوفيين قلب جعفر وقلب العباسة . ليستحقان التصوير والتحليل . فلم لم تلاق حادثتهما الاهتمام اللائق بهما ؟ هل كانت حياتهما الشاذة . تلك الحياة التى ذهبت ضحية الغرور والاستبداد موضوعاً تافهاً فى آثارنا القومية؟

الخطأ الكبير الذى ترتكبه الرؤس الكبيرة أقل أثراً من النتائج السيئة التى يولدها الخطأ نفسه . فاذا كان الخطأ شيناً وعاراً كانت الخسائر الناجمة من هذا الخطأ أكثر شيناً وأشد عاراً

عند مانقلب صفحات التاريخ وتقع انظارنا على بعض المظالم المدهشة ، لانتمالك من تبجيل ايامنا الحالية — ولو على غير اختيار منا — امام الوقائع الدموية التى حمي وطيسها

فى تلك الازمنة

نرى اليوم ارتقاء هيئتنا الاجتماعية فنقدس في انفسنا هذا الرقي التدريجى . زماننا ـ على اى الحالات ومن كل الوجوه ـ زمان الانسانية. ولو فكرا ولئكم الخلفاء المستبدون فى وقع ضرباتهم الاليمة . لو علموا اثرها الكبير وانعكاسها المدهش لامتنعوا عن تلك المظالم الشائنة التي ارتكبوها ولضحوا غرورهم فى سبيل الاحتفاظ بحسن الذكرى

الفصل الثاني

تلك الجوهرة النفيسة في عقد بني العباس . تلك الزمردة الثمينة بين درر النساء ، تلك التي كانت قلادة تزين جيد العصر الثاني من الهجرة . اخت الخليفة وبنت الخلافة . ذهبت ضحية الاقدار وفريسة الظروف القاسية

السيدة العباسة . اللبيبة الذكية . اجمل بنات المهدي . ثالث خلفاء بني العباس . لهي تمثل المأساة في ميدان التاريخ الاسلامي . وسحاب قاتم ، خلط بياض شهرة الرشيد بسواد دائم .

كانت معززة مكرمة في عائلتها الهاشمية النجيبة لما امتازت به منذ نعومة اظفارها من الفطنة والكياسة وحسن الذوق والبلاغة . فكانت تنزل من نفوسهم منزلة سامية . منزلة التقدير والاجلال

أما قصة حياتها واوائل نشأتها . فهي اسطورة جميلة تشتاق الآذان لسماعها والتلذذ بخيالاتها

مرّت ايام صباها في بغداد كنسمات الصبح بين

أحضان حدائقها الغناء ، فاكتسبت من بدائع الطبيعة رونقها واستعارت من الورود نفحاتها ، ومن البلابل نغماتها ، ومن ساعات الفجر وأوقات السحر بهجتها وضياءها . هامت فى لودية الجمال ، جمال الطبيعة ، فاشبعت روحها وانظارها من كوثره العذب

نشأت وترعرعت فى مسارح الذوق والصفاء وفى مجالس الانس والدلال ، وفى مغانى السرور والابتسامات فنشيت موسيقية الطبع ، جميلة الروح ، فاتنة الشكل ، متحلية بالادبين : أدب العلم وأدب النفس ، كلفة بالشعر ، كلفها بالورود والازهار ونفائس المعنويات والماديات

فتحت أنظارها فى أبهة قصرها المشرف على الدجلة فشاهدت ماحواه من طنطنة ودبدبة ، ومتعت النفس بدهاليزه المعنبرة وغرفه المزهرة فازدادت بهجة وجلالا

انها ملاك جميل : ملاك لانسمع بذكره الا فى أساطير الاولين ، الا أنها تمتاز عن ملائكة الاساطير بقصر حياتها . ولو دققنا النظر فى تلك اللآلىء التى تزين جيدها ، لآلىء مآسيها وأيام حياتها ، لو جدناها قد انتظمت على سلك من

الاحزان والآلام . ان المرء ليفضل قلادة خزفية على تلك الجواهر المنظومة فى سلك الاكدار . هذا أمر طالما تمنته . فكم ارادت ان تبيع عقدها لقاء ايام من السعادة طويلة الامد ! ولكن الدهر القاسى ، الدهر المتسيطر على عالمنا الحقير ، ابى عليها هذه النعمة . بل عاداها واشهر عليها حرباً عوانا لتشبثها فى خلع عقدها وقد كانت تراه نيراً يستعبد روحها

لم تمت العباسة لانها تعقبت آثار الغواية المعوجة كلا . انما ارادت ان تجني ثمار الامل دون ان تحفل باقدر أو تعبأ به فماتت وتدهورت تحت عجلات الاقدار ودفعت بجسمها لهذه الدنيا الفانية دينا هو في ذمة كل انسان يعيش على وجه البسيطة ، فكان مقتلها منقبة تاريخية وضياعها باعثاً على تسجيل اسمها في صحيفة الاسماء الخالدة

الفصل الثالث

البرامكة الذين كانوا غرة في جبين الدولة العباسية وتاجا على مفرق أيام الرشيد، هم احفاد بعض [redacted] من الفرس الذين استوطنوا بغداد أيام خلافة المنصور. كانوا قديما على دين المجوس ثم اسلم من اسلم منهم وحسن اسلامهم. استوزر المنصور جدهم خالد بن برمك فكانت لهم الكلمة النافذة والسيطرة التامة في شئون الحكم والادارة وضربت بمكارمهم الامثال وشدت اليهم الرحال ونيطت بهم الآمال. بذلت لهم الدنيا افلاذ أكبادها ومنحتهم أوفرا سعادها فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة والبحور زاخرة والسيول دافقة والغيوم ماطرة، اسواق الآداب عندهم نافقة ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية والدنيا في ايامهم عامرة وابهة المملكة ظاهرة

أما يحيى بن خالد وهو والد جعفر فكان فخر العائلة البرمكية. كان من عادته اذا ركب ان يمد صرارا في كل صرة مائتا درهم يدفعها الى المعترضين له يمينا ويسارا فاذا رأوه

الناس بشروا بعضهم البعض بتدفق غيوث خيراته وحسناته عليهم .

يحكى ان احد اعدائه البخلاء اضطر فى احدى المجالس ان يصافحه الا انه ما كاد يضع يده في يد يحيى حتى ارجعها خائباً مذعورا فنظر اليه يحيى نظرة المستغرب الناقد فأجابه — أخاف ان صافحتك ان تسري الى عدوى جودك وكرمك (١)

كان قصر البرامكة على شاطيء الدجلة قبالة قصر الخلافة وكانت مفتوحة ابوابه ليل نهار للزائرين من غادين ورائحين وكان ابو نواس يسمي دارهم ملجأ الاسلام وهو القائل فيهم

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغاد

---

(١) لعل الاميرة تعنى بذلك قول الشاعر .

لا تراني مصافحا كف يحيى
انني ان فعلت ضيعت مالي
لو يمس البخيل راحة يحيى
لسخت نفسه ببذل النوال

أراد يحيي بن خالد البرمكي ان يلقى على الهادى ، وقد كان ضعيف الراي (١) درسا محسوسا في ايام وزارته له — رغب الهادى فى شراء جارية حسناء بمبلغ مائة الف دينار فاستعظم وزيره هذا المبلغ وافهمه غبن هذه القيمة الباهظة الا ان المهدى اصر في رغبته ولم تجد نصائح الوزير نفعا فالتمس يحيى وسائل اخري لتسوية الامر وبينما كان يفكر فيما يجابه مثل هذا الاسراف من الخراب على الدولة ، خطرت بباله حيلة جميلة : جمع من الدراهم مايوازى قيمة المائة الف دينار ونثرها في صحن الجامع الذى يصلى فيه الهادى وعند وصول الهادي الى الجامع فى صلاة الجمعة ومعه يحيى نظر الى الدراهم ، المائلة ارجاء الجامع ، شرقا وغربا ، فقال :

ـ ماهذا ؟ ما اكثر هذا المال !

فوجد الوزير الفرصة سانحة واخبره بان هذا القدر من

---

(١) اننا لانقر الاميرة على هذا الرأي لان المعروف عن الهادى انه كان متيقظا غيورا ، كريما ، شهما شديد البطش ، جري ، القلب ، محمود الخلق ، ذا اقدام وعزم وحزم . ـ المعرب ـ

المال هو ثمن ماسوف يدفع لمشترى الجارية فاستعظم المبلغ ورجع عن عزمه . وكان يحيى يعجبه اخلاق هارون الرشيد ويفضله على اخيه الهادي وعندما حاول الهادى خلع اخاه من الخلافة والمبايعة لابنه جعفر بن الهادى حادث يحيى في ذلك فقال له

— ياأمير المؤمنين . ان فعلت حملت الناس على نكث الايمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك ولو تركت اخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر كان ذلك أوكد فى بيعته

فصوب الهادى رأيه وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من اعظم ايادى يحيى بن خالد عنده

وبعد انتهاء عهد الهادى وقد ظل عاما واحدا ، بايع الناس اخاه هارونا والفضل فى ذلك راجع الى يحيى فعظمت منزلته المباركة من نفس الرشيد واظهر امتنانه لهم في كل فرصة سنحت . كان ينزل يحيى منزلة لو لد . استوزره فى اوائل خلافته وترك مقاليد الامور وديعة له يعمل فيها برأيه الثاقب وحنكته وتجاربه فى الحياة فكانت اكثر النواحي

والامصار تحت زمام حكمه وسيطرته وبعد ان تقلد الوزارة بضع سنوات اصبح ابنه جعفر وزيرا مخلصا للرشيد ورفيقه وندبته وصديقه العزيز ، ذا المكانة السامية فى سويداء قلبه لا يفارقه لحظة من اللحظات . كان جعفر ، إذ ذاك فى العشرين من عمره وكان اخو الخليفة فى الرضاعة (١) فكانت ابواب القصر ودائرة الحريم مفتوحة الابواب له على الدوام ولحسن محضره ولطف حديثه اصبح محبوبا مألوفا من افراد عائلة الرشيد

كان جعفر طويل القامة ، نحيف اليدين وسيم الوجه ، ابيض اللون ، مستدير اللحية ، ذا عينين براقتين وابتسامة حلوة حديد المزاج ، فاضلا كريما على جانب عظيم من العلم والفضل وله من موارد الثروة مالا يقل عن الخليفة . لا يكاد يوجد فى بغداد انسان لم يصبه جانب من كرم الفضل ومروءته فكان محبوبا من الجميع ، يعتبره الناس النجم المتألق

(١) ظن الرشيد انما هو الفضل وليس جعفر وكان الرشيد يأنس بجعفر أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل

فى سماء عرش العباسيين

وكان يرى بنفسه كل المسائل المعضلة فيحل عقدتها برأيه الثاقب ويريح الخليفة من هموم الادارة واعبائها ومع أنه لا يغمض له جفن ولا يستريح فى ساعة من ساعات الليل فضلا عن النهار فى مصالح السلطنة فكان لا يفارق الخليفة في مجالسه أو منادمة وكان اديبا أريبا يعلم الشعر ويفهم الموسيقي ولذلك لم يبق انسان فى بغداد لا يقدر قيمة هذا الوزير المقطوع القرين

أحضر العلماء والحكماء وأمرهم بترجمة الكتب الاجنبية وشجع الفلاسفة والمفكرين وأسس دور العلم ونشر التجارة والطبابة والحكمة فى ربوع بغداد حتى اصبحت محطا لرجال العلماء وقطب رحى الآداب والفنون ولم يمض على هذه المدينة الا القليل حتى اطلق عليها أسم (أسواق الآداب)

كان الرشيد يغدق النعم والخيرات على من يجلب السرور ويسبب له الغبطة فيضحى ايراد بيت المال وضياعه الخاصة فى سبيل شخصه اما جعفر فكان يصرف ماله في سبيل المحافظة على مجد الرشيد وأبهة ملكه وخلافته التى يتفاني

في خدمتها . وكان يميل الى اللذات ولكنه يصرف نصف اموالهِ في وجوه البر والحسنات

اشتهر الرشيد بحسن ادارة جعفر . نال الرشيد القاب الحمد والثناء بفضل سخاء جعفر . كان لرشيد من اصحاب الحكمة والحجي باستعداد جعفر وكفاءته . اصبح الرشيد قرين العلماء ، جليس الادباء ، نديم الشعراء بارشادات جعفر وبجعفر فحسب كان لرشيد رشيدا .

ماأجلها روحا ، تلك الروح العالية والنفس الابية التي تستنسخ مزاياها من اشخاص أخرى ولاتفقد بذلك بهجتها واضواء كمالها !

كان الرشيد في بداية حكمه مسودة لوحة فنية تحتاج الى ألوان عديدة واصلاحات كثيرة بمرور الزمن اصبحت تلك المسودة الناقصة فى أيام وزارة جعفر لوحة فنية نفيسة وظهرت فى معرض التاريخ بتلك الابهة والعظمة

مما يدلنا على الروابط القوية والالفة المتينة ، الموجودة بين الرشيد وجعفر الحكاية الآتية:

قيل : ان جعفر بن يحيى جلس يوما للشرب وأحب الخلوة

فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم وقد هيأ المجلس ولبسوا ثيابا مصبغة وكانوا اذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا ثياب الحمر والصفر والخضر ثم ان جعفرا تقدم الى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله سوى رجل من الندماء كان تأخر عنهم ، اسمه عبد الملك بن صالح ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاسات وخفقت العيدان وكان رجل من اقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح ابن علي بن عبد الله بن العباس . وكان شديد الوقار والدين والحشمة وكان الرشيد قد التمس منه ان يناديه ويشرب معه وبذل له على ذلك أموالا جليلة ، فلم يفعل ، فاتفق ان هذا (عبد الملك بن صالح) حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له ، فظن الحاجب انه هو عبد الملك ابن صالح العباس ، فأدخله على جعفر بن يحيى ، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن ان القضية قد اشتبهت على الحاجب ، بطريق اشتباه الاسم ، وفطن عبد الملك بن صالح ايضاً للقصة وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى ، فانبسط عبد الملك وقال : —

— لابأس عليكم احضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئا

فاحضر له قميص مصبوغ ،فلبسه وجلس بباسط جعفر بن يحيي ويمازحه ، وقال .

— اسقونا من شرابكم .

— فسقوه رطلا وقال

— ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا

ثم باسطهم ومازحهم ومازال حتى انبسط جعفر بن يحيي وزال انقباضه وحياؤه .ففرح جعفر بذلك فرحا شديدا وقال له :

— ماحاجتك ؟

قال

جئت — اعلحك الله — فى ثلاث حوائج ، أريد ان تخاطب الخليفة فيها . أولها ان على دينا مبلغه الف الف درهم يريد قضاءه . وثانيها اريد ولاية لابنى ، يشرف بها قدره . وثالثها اريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة ، فانها بنت عمه ، وهو كفء لها

فقال له جعفر.

ـ قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث . أما المال ففي هذه الساعة يحمل الى منزلك . واما الولاية فقد وليت ابنك مصر . وأما الزواج فقد زوجته فلانة ، ابنة مولانا أمير المؤمنين ، على صداق مبلغه كذا وكذا فتصرف فى امان الله

فراح عبد الملك الى منزله ، فرأى المال قد سبقه ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ماجري وأنه قد ولاه مصر وزوجه ابنته ، فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر واحضر القضاة والشهود وعقد العقد (١)

(١) الفخرى

الفصل الرابع

تلك هى ثقة الرشيد بوزيره وأنيس قلبه وحبيبه العزيز جعفر . والى هذا الحد البعيد وصلت دالة الوزير على مولاه الخليفة . كان يرى بنفسه أكبر شئون الدولة وأعوصها . فيقيم أوزانها . ويفصل فى قضاياها سواء كان فى حضور الحاكم أو فى غيابه . وسواء علم الرشيد أم لم يعلم . فهل كان يخطر على البال أن تنفرج بينهما شقة الخلاف ؟ وهل كان يظن ان الشمس تشرق عليهما ذات يوم وهما مختلفان متنافران وقد أحبا بمضيهما واستوثقا من نفسيهما الى هذا الحد ؟ لم يكن بين الخليفة ووزيره سر مكتوم ، فكل سرائر الخليفة ونياته صفحة مفتوحة أمام جعفر ، وكل دخائل جعفر وخفايا نفسه ملم بها الخليفة . فهل يأتي عليهما يوم ينكر فيه أحدهما الآخر ؟ ما كان يمضى يوم دون أن يذهب رسول من قصر الخلافة الى قصر البرامكة . ما أكثر ما كان يخرج جعفر من حضرة الرشيد فيرسل فى طلبه ! وما أكثر الاوقات التي خرجا فيها الى الصيد والقنص ! ما اكثر الليالي التي امضياها

معاً جنباً الى جنب يتفقدان فيها أحوال بغداد ! ما أكثر الهدايا والتذكارات الثمينة التي يهدى بها الخليفة وزيره الصادق ! فهل كان لكل هذه الاوقات والساعات والليالى والايام نهاية وحد ؟

نعم كان لها مدى وغاية . كانت الايام الدائرة تلك الايام التي تمضى بثقات من المشاغل والحوادث تقترب ببطء وهدوء لهذه الغاية . كانت السحب المتكاثفة فى سماء مستقبل الوزير تنذر باحتمال حدوث هذا الانقلاب التدريجي . لان أعداء جعفر كانوا يتكاثرون ويتفاقمون بنسبة استفحاله فى الشهرة وبعد الصيت . توهم أنه يستطيع أن يستهوى أفئدة الخلق ويستعبد قلوبهم بقيود نعمته وسلاسل جوده . وقد فاته أن الناس قد تنسى كل حسناته إزاء نعمة واحدة يغدقها عليه الخليفة . أو ميزة من المزايا يختصه بها دونهم

لولا الحسد وماتنطوى عليه الصدور من الاحقاد لولا مايحمله الانسان لأخيه الانسان من ضغينة وغل لما استطاعت رياح الاقدار أن تطفىء شمس سعادته المضيء

كثر الساعون فى اختلال روابط الثقة المتينة التي بين

الخليفة ووزيره ، واشتد ساعد الذين يحملون المعاول الهادمة لهذه الثقة . وبين هؤلاء الساعين الاميرة زبيدة فانها نفرت منه منذ حادثة مكة وانتهزت كل فرصة سانحة لتكون ضده . انها لم تنس نظرات جعفر المصوبة الى ابنها الامين وهو يحلف ثلاثا يمين الطاعة وعدم الخيانة بين يدى أبيه الرشيد وفي حضوره فى بيت الله الحرام ، لم تنس سعيه فى تنصيب المأمون لولاية العهد بعد ابنه الامين ، بل أسرت ذلك فى نفسها ، متوعدة الانتقام يوما ما من هذا المملوك الفارسى

لم يتدرع جعفر الا بالنعمه . كان مرتاح الضمير ولذلك لم يخش خصومة أحد حتى ولا تنكر الخليفة عليه . لم يشك في انسان ولم يتوهم ان الخليفة قد يحنق او يحقد عليه في ساعة من الساعات ، لم يخطر على باله أن الخليفة قد يرتاب به أو يسيء اليه الظن وهو يشاهد من شرفة قصره جماهير الخلق المحتشدة فى الضفة الاخرى من الدجلة حول قصر البرامكة. لم يدرك أن هذا العالم الى فناء وبوار لان سجف السعادة والرفاهة كانت تستر الحقيقة عن عينيه

كان ينظر الى هذا العالم بعيني مسافر يقطع الصحراء ووجهته السراب يخطو اليه مبتهجا مسرورا مفتونا مأخوذ اللب. كان يعيش آمنا مطمئنا غير حاسب لعاديات الدهر حسابا. لماذا؟ لانه كان واثقا من مودة الخليفة. كان يعلم أن منزلته من نفس مولاه الرشيد هي منزلة العباسة من نفس أخيها

أجل ان الرشيد ما كان يستطيع صبرا عن مفارقة أخته العباسة التي شبت ونشأت معه وشاركته في أهوائه وميوله. كان التذاذه من مشافهة العباسة لايقل لذة عن محادثة جعفر، وان سروره من سماع اشعارها ليعادل ابتهاجه من منادمة الوزير له وكما كانت أدبيات اخته تجلب له السرور والانشراح، كذلك مواعظ جعفر وأقواله الحكيمة تثلج صدره وتدعوه الى الاغتباط. كان يفتخر بجاذبية العباسة ويباهي بوقار الوزير ورزانته. وبالاجمال كان لايحتمل مفارقة احدهما فكانا يجلسان اليه معا في القصر والحديقة ومغاني اللهو. فكانوا يتناشدون الاشعار ويخوضون فنون الحكمة والفلسفة. كانت العباسة على علم ناضج وأدب رائع تعد من حكيمات عصرها وعالمات زمانها وكان

الرشيد يسر من الرجوع اليها فى كثير من معضلات المسائل العلمية ويناقشها ويجادلها الساعات الطوال فى مختلف الفنون وعندما كان ينبيء الاميرة زبيدة بطرف من هذه الحوادث كانت تغضب ويظهر عليها أثر الانفعال . كانت لاتهضم علو كعب العباسة فى العلوم ودرجتها المعنوية الرفيعة فكانت تنفس عليها هذه الرتبة وتغار منها مع أنها على حظ من وفير العلم

عندما كان يجلس الثلاثة ، الرشيد والعباسة وجعفر ، فى المجالس المعتبرة ذات القباب المكسوة بآيات الفن من قصر الخلافة فيخوضون لجة الحديث والمسامرة ويشقون عباب الشعر والموسيقى وتمتلىء نفوسهم بالغبطة والهناءة ، ينسون بغداد ولا يخطر على بالهم شأن من شئون العالم . من يدرى أي درر من غوالي الالفاظ وثمار القرائح ونتاج العلم الناضج كانت تسقط فى ارجاء تلك المجالس ؟ لو كان للجدران المغطاة بقطع الديباج والمكسوة بانفس الحرائر لسان ناطق ، لاتحفنا اليوم بنكات لطيفة ومعان مبتكرة جميلة وحسنات من اللفظ لاتخطر على البال . . . . ولكن قد تداعت الجدران وطارت الاستار على أجنحة آلهة الشعر وذهبت تلك الايام

ادراج الرياح ولم يبق لنا من ذلك الماضى المشعشع سوى خزانة محدودة من الخواطر . اننا لنمتطى الآن سفينة الذكرى ، ذكرى (الانس المثلث) : الرشيد والعباسة وجعفر ونخوض خضم تلك الايام فلا نجد شيئا ولا نشعر الا برشاش من أمواجه . . .

كان الرشيد مغتبطا بهذا (الانس المثلث) ، كان يرمى بنفسه في احضان هـــذين العزيزين لينسي مشاغل اليوم ومتاعب الادارة ؟ كان يشعر بهناءة كبرى من تلك المحادثات والمنادمات التي يعقدها في المجالس ذات القباب ولا يكتم شعوره هذا عن العلماء وأكابر رجال الدولة ممن يمثلون بين يده

كان يثنى على ذكاء العباسة ويقدر بلاغة جعفر ويباهى بمنادمتهما له ، هذه الحالة الروحية كان ينفر منها العلماء ، أولئك العلماء الذين كانوا يتغافلون او يتغاضون عن مجالس اللهو والشراب المنتشرة فى العصر الثاني من الهجرة . كبر عليهم مجالسة العباسة للرشيد في حضور جعفر فسددوا اليه سهام نقدهم ولومهم . لم ينتقدوا رفاهة العظماء واستفحالهم فى ضروب اللذة ، الامر الشائع فى ذلك العصر مثل انتقادهم لهذا

الأمر وكان الرشيد لا يستهجن هذا النقد ويرى أنه مبعث هذا اللوم ولكنه لم يستطع ان ينقطع عن أمر يشبع روحه باللذائذ المعنوية فلم يأل جهداً في التفكير واعمال الروية لايجاد حل معقول للمسألة ، وفي النهاية جمع علماءه في القصر فعقدوا مجلسا لهذه الغاية .

أعمل العلماء رويتهم وشحذوا قرائحهم فوجدوا أحسن حل للمسألة أن يعقد لجعفر على العباسة ، الا أن الرشيد لم يقنعه هذا الرأي أن العباسة الشريفة بمليلة العائلة النبوية لا يمكنها أن تتزوج بجعفر ، لا يجوز [redacted] أن يقترن بسيدة من عقيلات بني هاشم ، فلا مناص اذن من ايجاد حل آخر . كان الفقهاء في موقف دقيق لا يسعهم أن يكونوا هدفاً لغضب خليفتهم فاحتاروا وأسقط في يدهم لانه محتم عليهم أن يوفقوا بين أوامر الشريعة ورغبات الخليفة وبينما هم في لجج الحيرة والدهشة خطرت على بال أحدهم فكرة عرضها على مولاه فنالت الاستحسان . رأى هذا العالم أن يزوجها حتى يحل له النظر اليها ولكن لا يقربها (١) وهكذا أجازوا تلك

---

(١) ابن الاثير ، الطبري ، الفخري

للمسامرات الليلة في قصر الخلافة تحت هذا الشرط . فقبل الخليفة أن يعقد له عليها ورضي بالشرط . بذلك تخلص الرشيد من قيل الناس وقالهم وعاد الى منادمة صديقيه العزيزين وجليسيه الاليفين

لم يكن بعد هذه الحادثة انسان أسعد حالا من الرشيد. انه ليقاوم أصعب الازمات فيفرجها برأيه ، انه ليقف باسما هازئا أمام الشدائد والصعاب يتحكم فى القوانين والشرائع والعادات ويبسط سلطان نفوذه على غرائز الطبيعة فيظهر ازدراءه بما يظنه الناس امراً مستحيلا

أيها الغرور ! أيها الطابع الازلى للانسانية ! كم نفساً تحطمت على صخرتك العالية وكم أملا تكسر عند اقدامك وكم رغبة حارة رددت أنفاسها الاخيرة فوق منحدك ! وأى انسان استطاع مقاومة مغناطيسيتك . لو أحصينا الذين رموا بأنفسهم في أحضانك فكم يبلغ عددهم ؟

أيتها البشرية ! لم تستطع الاجيال ان تغير تأثير غرائزك الموروثة ولم تستطع العصور المتقادمة ان تعدل تربيتك الروحية والفكرية

كان الرشيد يعتبر الساعات التى يقضيها بجانب وزيره من ألذ أوقات عمره وأشهاها . كان لا يصبر عنه لحظة واحدة ويستفيد من ذكائه وعرفانه ويتنازل لقبول مشورته وآرائه ومع ذلك أظهر التردد والخوف أمام علمائه وفقهائه الذين أجازوا اختلاطه بأفراد عائلته معلنا لهم أنه مملوك فارسي !

أصل جعفر وأرومته هو نقصه الوحيدما ولقد أثبت الرشيد بأن المروءة والشهامة وأدب النفس مزايا انسانية لا تشفع للمرء فى جميع أطوار حياته عند استنكف أولا مما عرضه عليه علماؤه . لو أننا وصلنا الى قرارة نفس الرشيد ربما علمنا انه كان راضياً من أمر الزواج إلا أن غروره المتسلط على قلبه وقف حائلا بينه وبين الرضي بهذا الأمر.

أما جعفر فقد كان مغلوباً على أمره أمام علم العباسة ومزاياها الروحية فكان يزداد تعلقاً بها وشغفاً بنفسها رغم أوامر الخليفة . كانت العباسة حياة جعفر يعبدها بروحه وجسمه أصبحت عيناه لا ترى نوراً غير نور هذه النجمة التى سقطت فى سماء حياته

فى هذة الآونة كانت العيون والجواسيس الذين يأتمرون بأمر زبيدة واقفين لحركات جعفر بالمرصاد يرون ذهاب جعفر الى قصر العباسة ويحملون الى زبيدة حوادث تنزههما معا فى حديقتها بين خمائل الورد والقرنفل . وكان الجواسيس لا يتكلفون عناء كبيراً فى سبيل مأموريتهم لان جعفر كان يمشى بملابسه السوداء ، شارة العباسيين، ويصل الى القصر من طريق الشرفة المطلة على الدجلة جهاراً عيانا دون تنكر إما ممتطيا صهوة جواده واما راكبا زورقه

كانت أخبار هذه الزيارات الليلية تصل اسماع زبيدة وابنها والفضل فيعقدون مجلسا من مشايعيهم لتدبير مكيدة يوقعون جعفر فى حبائلها

كان الفضل بن الربيع خادما صادقا الامين ، ذى المزاج المتلون . كان فى مبدء أمره حاجب الخلافة ويشغل الآن مركزاً كبيراً وكان يحسد جعفر لمزاياه العالية ويطمح الى الوصول للوزارة فجعل يعمل على اسقاطه سراً ولا يرى فرصة فيها هلاك البرامكة حتى يقتنصها ، كان يريد أن يقضى على الذين وقفوا حجر عثرة فى سبيل آماله واطماعه

فلم يقعد يوما عن سبيل فيه ايذاء جعفر . وقد أسعفته الاقدار بما كان يبحث عنه . خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد فاغتم الرشيد لذلك وندب اليه الفضل بن يحيى فذهب اليه الفضل وحاصره فمال يحيى الى الصلح وطلب امانا بخط الرشيد فاجابه الرشيد الى ذلك وسر به وكتب له أمانا فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد في أول الامر بكل ما أحب ثم أمر بحبسه بعد ذلك فما سمع الطالبي ذلك حتى اسرع الى جعفر قائلا:

ـ قد كتبت لنا أمانا فحضرنا اليك فاذا انت امرت بابقائي في السجن، عرضت نفسك لقهر الله وغضبه

وعلى اثر ذلك اطلق جعفر سبيله فاغتنم اعداؤه هذه الفرصة ونقلوا الحادثة الى الرشيد

الفصل الرابع

كان الرشيد حانقا غاضبا بعد تلك الحادثة واخذت مكانة جعفر تتضاءل في نفسه شيئا فشيئا وكأنى به وقد اختلى بغرفته على اثر سماع هذا النبأ وأوصى مسروراً السياف بأن يمنع كائنا من كان من الدخول عليه يقول في سره: «ما هذه الجرأة ، كيف يستطيع جعفر ان يعصى لى امراً وانا الخليفة صاحب النهي والامر. إنه قد وصل من استبداده الى حد لا يمكن السكوت عنه » وكأنى به وقد حادث نفسه بمثل هذه الاقوال يشرف من نافذة غرفته ، محاولا تسلية نفسه بزئير الاسود المحجوزة في اقفاصها الحديدية بحديقة القصر

بلى ! هذا ما حدث فان التاريخ نقل الينا انه نزل بعد سماعه هذا النبأ الى حديقته ، حيث اقفاص الليوث وهنا طلب من الحارس ان يحضر له رضيعا مذبوحا من الغنم . أخذ قطعة صغيرة ورماها الى اعز الليوث عنده فالتهمها فى الحال وقف بعد ذلك ينتظر ان يلقي اليه الباقي . انتظر كثيراً ولكن عبثا لان الخليفة امر الحارس بأن يمنع عنه الباقى .

عيل صبر الاسد وكان يزأر من حين لآخر كأنما يطلب بلسان الحال فريسته

وقف الرشيد يتأمل طويلا هـذا المنظر ويقارن بين حالة الاسد وحالته الروحية وكأني به الآن وقد امتزجت نفسيته بنفسية الاسـد مشفق عليه ونادم على منع الفريسة عنه وكأني به وهو ينظر الى الحارس شذراً ويلومه لانه ينفذ فى صديقه الاسد هذا الامر القاسى نجد فى الاسد شبيهاً به وبالحارس مثيلا لجعفر ،عدوه الآن

وعنده ماعيل صبره لم يطق احتمال رؤية الاسد يتعذب فأمر بأن تلقى اليه الشاة كاملة فألقيت . هجم الليث على فريسته وقطعها اربا بين براثنه وأخذ يقضم العظام بأنيابه وبعد أن استقرت كاملة في معدته ربض ربضة الآمن المطمئن وأخذ يصوب نظراته الى الرشيد ،تلك النظرات التى لم يذهب عنها بريق الحدة والغضب

أما الرشـيد فبعد أن وقف طويلا أمام هذا المنظر عاد الى قصره وقد هدأت الثورة القائمة بين جوانب نفسه

انه ليفكر فيقول فى سره لو كنت الآن داخل القفص

فأى شيء كان يمنع الليث من أن يهاجمني فيفترسني افتراس قطعة اللحم . كان يرى فى نفسه وهو يمشي نحو القصر بين طرقاته المزينة بأصص الرياحين ، أسداً ظامئاً الى الافتراس ، نفساً طموحة الا الانتقام ، كان تواقاً الى التشفي من عدوه اللدود جعفر . ولكن هيهات لم تحن الفرصة بعد . . ينتظر الفرصة بفروغ صبر ولا يدعها تفلت من يده بعد اليوم

وصل الخليفة الى القصر وصعد توا غرفته الخاصة وكان منظر الغروب جميلا يجذب الروح فجلس متكئا على النافذة ، يتأمل بحزن واطراق ألوان السحب المتماوجة في السماء وما لبث أن مد ببصره الى الضفة الاخرى من الدجلة حيث يوجد قصر البرامكة

ارتعشت نفس الرشيد داخل جسمه . كان الناس عند مدخل القصر ينتظرون أوامر الوزير ، بين داخل وخارج يهرولون ذات اليمين وذات اليسار وبينهم الجنود ورجال الشرطة في هرج ومرج هنالك الضجيج ، هنالك الحركة : هنالك كل شيء .

ارتكزت عيناه عند هذه النقطة من الضفة الاخرى

وكلما لج به النظر ، اشتد حنقه ، وارتفع صدره بنيران الغيظ المضطرمة بين أحشاء قلبه . كانت أهداب عينه تهتز بحركة عصبية وهو يرى أن سكون الماء وهدوء الطبيعة لا يتخللها سوى حركة واحدة فى تلك الساعة ، هى الحركة الآتية من الضفة الاخرى أمام قصر جعفر

أيقن الآن ان جعفر هو حاكم بغداد وأمير الدولة وخليفة الاسلام علم الآن ان جعفراً كان كل شيء . ولكن أين هو من هذا الضجيج ؟ أين مكانته من هذه الحركة ؟ أين عز الخلافة وشرف الحكم ؟ هنالك فى قصر البرامكة ؟ الذى يلمع بالاضواء ويموج بالحركة اما قصر الرشيد فقد تسربل برداء السكون والصموت

تبطنت أعماق نفسه بآلام خفية فى هذه اللحظة فنسى كل شيء

نسى صداقة الجعفر واخلاصه وفطانته ، نسى ان هؤلاء المحتشدين حول دار وزيره جاءوا يلتمسون نداه ، يستعطفون مروءته ، يلتجئون الى ظل شهامته . نسى انهم وافدين اليه لقضاء مصالحهم ، نسى ان جعفراً أخذ على عاتقه هذا الحمل

ليخفف عنه العبء . نسي فصاحة وزيره وحسن تدبيره ودرايته . نعم نسي كل شيء ولم يبق في عقله وذهنه الا أمر واحد ، اهتزت له أرجاء روحه وأخذ قلبه يخفق من الحدة والألم . وكأني به يقول : « لست أنا الخليفة وانما الخليفة جعفر ما أشد بلائي ! كيف لم أفطن الى هذه النتيجة ماذا استطيع أن اعمله الآن لو أن جعفراً نزع الى انتزاع الحكم من يدي وسير رجال الجيش على ، وجلهم من الاعجام صنائع معروفه ونداه »

هذا ما يردده الرشيد في مثل هذا الظرف ، لاسيما وقد اشتدت هجمات الاعداء ووشاياتهم في حقه فلا يلتفت حتى يجد واشيا ولا يمشي حتى يجد من يحدثه بخيانة جعفر له . وما أكثر الاوراق التي كان يجدها في سريره تحذره بعاقبة الحال وسوء المنقلب

فكر كثيراً واستعرض وجوه الرأي للتخلص من هذه الحال . خطر بباله ان يوفده الى خراسان ولكن أحجم عن هذا الرأي لخطورته لان جعفر قد يجتمع هناك مريدوه واشياعه حوله فيؤلف منهم قوة كبيرة لا تقاوم ، فلم يجد الا القتل

داء شافيا . ولكن كان عليه ان يلتمس لقصده هـذا عذراً وينتظر الفرصة السانحة . ولذلك لم يجـد مندوحة من الصبر والتأني فنادى مسروره وأمره بأن يذهب الى وزيره يدعوه الى تناول طعام العشاء

كان الرشيد ينتظره بوجه باسم ومحيا طلق وهو على أريكة مزركشة قائمة على عرش مـذهب . وعلى مقربة منه مائدة تنوء بأطباق الفضة المحتوية على صنوف الفواكه والمشمومات بجانبها أكواب من البلور تتلألأ داخلها أشربة ملونة وقد فاحت القاعة بعبير العنبر والصندل والعود

في الغرفة المجاورة ،على مقربة من القاعة التي فيها هذه النفائس ، كان ابو نواس وابو زكار وابراهيم الموصلي يتشاورون فيما بينهم على الاغاني والالحان التي يطربون بها في تلك الليلة مسامع مولاهم الخليفة

لم يمض على انتظار الخليفة زمن كبير حتى وصل مسامعه صليل السيوف وصهيل الخيول . حضر جعفر مع رجال حاشيته .

صوب الخليفة انظاره نحو الباب الذي سيدخل منه الوزير وعند مارفع الوزير السجف الحقيقية المتدلية على الباب

نظر الى الخليفة ثم الى نظراته المنطوية على الغيظ والحقد فكاد يصعق فى مكانه ولكنه لم شعثه وخطا نحو الخليفة خطوات ثابتة يقدم له تحية الاحترام

اخفى الرشيد مابين جوانحه من الغيظ والحقد وابتسم للوزير ليخفى ما تنطوى عليه جوارحه فقال له معترضاً على لباسه: —

— ماهذا ياأخي اننا سنتناول الطعام على حدة فلماذا اعتنيت بلباسك الى هذا الحد

كان الخليفه في هذا المجلس ضاحكا لاهيا يملأ الاقداح ويسأل جعفر عن شئونه الخاصة ويداعب الندماء ويطرب لنغمات الموصلي وانشاد الشعراء أما جعفر فكان يحاول اسكات خفقان قلبه واضطرابه ليشارك الخليفة فى هذا السرور والنشاط . كان يحاول أن يرفع عن نفسه أثر تلك النظرات الاولى التي قابله الخليفة بها كان يجاهد نفسه ليبتسم وليضحك، ولكن كانت كلمات الخليفة وابتساماته ونظراته تتسدد في صدره كأنها سهام مسنونة . علم جعفر كل شيء وأيقن بزوال مكانته من نفس مولاه وأيقن بالسقوط على اثر تلك

النظرة المعنوية

أيمكن ان يكون الخليفة وقف على سره واطلع على مابينه وبين العباسة ، محال ان يكون ذلك . فمن يستطيع ان يخبر الخليفة بهذا الامر ليستهدف لغضبه . هل وصمته وشاية او سعى اليه احد اعدائه . لاريب في ذلك فانه كان يشعر بأن اعداءه يتألبون عليه وان كلمتهم اشتدت في الايام الاخيرة وبان نفوذهم اخذ في الاستفحال

قارب الطعام على الانتهاء وكان الرشيد ووزيره يتناولان الفاكهة وكان الخليفة قد مد يده الى اجاصة فقال له فجأة :

كدت انسى كيف حال يحيى بن عبد الله الطالبي ؟

فارتبك جعفر الا انه قال :

— هو في الحبس يامولاي

فقال الرشيد :

— بحياتي ؟

فغطن جعفر واجاب : لا وحياتك ، ولكن اطلقته ، لاني علمت انه ليس عنده مكروه فقال له الرشيد :

— نعم مافعلت . هذا ما كنت انتظره من حسن فطانتك .

انتهى الطعام وجلسا يتنادمان قليلا وخاضا في شئون مختلفة وفى النهاية عندما قام جعفر نظر الرشيد اليه وهو يقول في نفسه : قتلنى الله ان لم اقتلك[1]

(١) الفخري

الفصل الخامس

أسدل الرشيد الستار على تلك الجلسة البديعة بجملة تهديدية حفظها لنا التاريخ حتى يومنا هذا . هاقد دار الفلك دورته وانقضت أيام الصفاء والمخادنة، أوقات السلام والمخالصة انها لساعة رهيبة . وأزمة عصيبة وشدة مريرة ان يجد المرء نفسه هدفاً لسهام المخاصمة بعد ان كان موضع التجلة والاكرام على غرة من الدهر وغفوة من الزمان

دام الحال على هذا المنوال فتعقدت الازمة وكان جعفر حائراً مهموما واعداؤه فرحين مسرورين ، لاينفكون عن نصب شراك الحيل والدسائس وايصال الاذى اليه ماوجدوا الى ذلك سبيلا

اشتد قلق جعفر لانه كان لا يفكر بشأن نفسه فحسب بل كان يفكر في أمر عباسته فاذا سمع الرشيد بما وصلت اليه علاقتهما وبنتاج هذه العلاقة ، بابنهما حسن ، قضى عليهما وطوى من صحيفة الوجود خبرهما . غير أن جعفر لم يفته ان يأخذ الحيطة قبل وقوع المحظور ولذلك أرسل الطفل الى

مكة مع مولى من مواليه المخلصين

حقا ما الحياة الا مجموعة احساسات وآلام . ان جعفراً ليضحي وزارته وماهو فيه من أبهة حال ورفاهة عيش في سبيل سعادة العباسة ، إنه ليفتدى حياته فى سبيل راحتها وهنائها ولكن كيف يتسنى له ذلك وقد تكاثر عليه أعداؤه ؟ ليس أمامه ليعيش آمنا مطمئنا تحت ظلال الراحة والهدوء، الا مفارقة بغداد وإن السبيل الى ذلك سهل ميسور فهو يتحمل متاعب السفر الى تلك الأصقاع مع عباسته وابنيهما ، انه ليستطيع ذلك اذا قدر أن يترك الوزارة دون أن يلحقه ما يخدش السمعة أو الشرف . ولكن الشعب ، الشعب ذى المزاج المتغير ، الشعب المتلون كالحرباء

قد انفض اليوم من حوله وحول بيته الكثيرون ممن نشأوا وترعرعوا في ظلال نعمة البرامكة وندائهم . كان واثقا من ذلك مع انه لم يحاول يوما ما أن يجرح احساس أحد منهم انما كان يسعى في أن يقيم باستقامة وعدل ما اعوج من أخلاقهم كان عليه أن يقاوم ويكافح وأن يقف أمام هذه الجموع المحتشدة مستمدا من المولى العون والعناية . قد صمم أن يقاوم حتى النفس

الأخير دون أن يتطرق اليه اليأس أو تفترعنه العزيمة مادامت روحه المعنوية أي العباسة في حفظ وأمان

نعم كان وجود العباسة يغرس في كل ذرة من ذرات كيانه بذور الشجاعة والاقدام . أراد أن يحيا في دائرة تتنسم العباسة داخل حدودها

كانت أخت الرشيد نجمة آماله ، منبع أشواقه ، أفق مسراته ، بل كانت هي الكل في الكل .

كان الآن يعيش للعباسة ويعمل للعباسة ويناضل لاجل العباسة ، انها مقر أمله ومبعث شجاعته وإقدامه . سوف يكافح أعداءه بعد اليوم ويقف امامهم وجها لوجه ويلقي عليهم درساً فعلياً في نظرية تنازع البقاء لغرض واحد هو سعادة العباسة . . .

الفصل السادس

بينما كان جعفر غارقا فى قرار عميق من لجج هـذه الفلسفة الروحية والمشاعر المعنوية وهو يظن نفسه فى حصن حصين من خيراته السالفة ونعمائه السابقة كان المحذور قد وقع وسبق السيف العذل. أجل ان عيون زبيدة الذين نقلوا اليها أخبار ملاقاتهما الليلية هو والعباسة وتزاورهما ومناجاتهما لبعض ، تحت أشعة القمر فى حدائق الخلافة ، نقلوا اليها كذلك بشرى ولادة الحسن وارساله الى مكة الى غير ذلك من خطير الحوادث

ما كاد ذلك يصل مسامع زبيدة حتى اجتمعت بالفضل وابنها الأمين وتشاوروا جميعا كيف يزفون هذه الحوادث الى مسامع الخليفة!

فكروا كثيرا فوجدوا خير وسيلة يتذرعون بها هو كتابة رقع يدونون فيها أبياتا من الشعر تتضمن الحادثة وينثرونها فى أرجاء القاعة التى يجلس الرشيد فيها وسرعان ما اعمدوا الى هذه الفكرة وأخرجوها من حيز الفكر الى

دائرة العمل

لم يمض الا قليل من الزمن حتى علم الخليفة بالسر المكتوم وأسكنه في قرار مكين من زوايا صدره وسافر فجأة في تلك السنة الى الحجاز فأوجس جعفر خيفة من هذه الرحلة وتوقع أن يحدث على أثرها حوادث ذات بال

وصل الخليفة الى مكة فبث العيون والارصاد يبحث عن ابن العباسة الى أن عثر على ضالته وعرف النجل الظريف سليل الدوحة الهاشمية من سمات وجهه . كان الحسن ذا وجه مشرق بضياء الحسن والبهجة ، يشبه أمه العباسة أخت الرشيد وتكاد عيناه البراقتان تفشيان سر الحبيب

كاد الحب يتغلب عليه فيشفق على ذلك الغلام الجميل ابن أخته لولا الغرور . نعم ! تغلب الغرور على أمره وتسيطر على حواسه فما أعجز الانسان أمام تلك القوة الموهومة التي تتسيطر على ارادته

استوثق الرشيد من الامر فقفل راجعاً الي بغداد مقر الخلافة ، وقد خفف ذلك من هيجان غيظه وكمده . كان سافر الى مكة مسرعاً مضطربا فعاد منها هادئا مطمئنا وقد

وقف على مايريد أن يعلمه بل مكث في محطات كثيرة لقبول الهدايا كما قبل أيضاً هدايا البرامكة كالمعتاد وشنف سمعه بمديحهم وحمدهم ، وفى النهاية حط الرحال عند مدينة (الانبار) التى يستظرفها على شاطىء الدجلة

كان من عادة الرشيد أن يتقابل مع وزيره جعفر فى هذه النقطة ، مدينة الانبار ، عند عودته من بيت الله الحرام . وكان من عادة جعفر ان يولم فيها وليمة كبرى يدعو اليها مولاه الخليفة . ولكن حدث هذه المرة ان الرشيد لم يقبل دعوة وزيره وانما فضل أن ينزل فى قصره الخاص ليرتاح من وعثاء السفر . ففهم جعفر ماينطوى عليه هذا الرفض ونظر الى افق المستقبل فرآه مظلما بسحابة سوداء .

اقتربت ساعة الادبار ، انها تسرع نحوه ، وقد أصبح مستقبل ابنه الحسن مظلما . فاذا ألقاه الخليفة في غيابات السجون ماذا تكون حالة العباسة ؟ ولم هذا الجد العاثر ونكد الطالع ؟ أهذا جزاء صداقته واخلاصه للخلافة منذ نعومة أظفاره ، ألا يعلم الرشيد كل ذلك ؟ ماذا فعل للناس حتى يستحق منهم مثل هذا الجزاء ؟ وكأنى به يقول لهم:

— صنعت معكم خيراً فكيف يكون جزائي شراً

هذا سؤال يجيب عليه الزمان ، الزمان هو الذى يقول له :

ـ انهم خانوك لأنك أحسنت اليهم ! ألم تسمع قول مشرع الاسلام . (اتق شر من احسنت اليه)

أخذت الافكار ترد مخيلته تباعاً آخذة بعضها برقاب بعض ولكنه كان لا يصدق ان الخليفة يعلم يوما مابينه وبين العباسة لانه كان جد واثق منها ومن رجال معيته . كان يعلم ان منزلته قد قلت فى نظر الرشيد . وكان يعزو ذلك الى الوشايات التي يحيكها الأعداء حوله . وعند مانقل هذه الحالة الى العباسة وجدها الرشيد له ارتعشت لانها كانت تعلم اخيها وادركت بفطنتها وبعد نظرها ان ادبار جعفر منشؤه علم الخليفة بما بينهما . اراد جعفر ان يقنعها ويسكتها الا انه عبثا حاول تخفيف ماتغلف حول روحها من الشاعر المؤلمة ، انها كانت ترتعد تحت عبء رؤيا مفجعة . قد انقبض صدرها امام مشهد مؤلم اصبحت تتوقع حدوثه الساعة قبل الساعة

كان الرشيد فى تلك الآونة قد سار من الأنبار الى بغداد فى السفن وجعل قبل ان يصل العاصمة يشرب تارة ويلهو اخري وعنده ابوذكار يغنيه فلما اقبل المساء دعا مسرورا الخادم، وكان مبغضا لجعفر فقال له

ـ اذهب فجئنى برأس جعفر

بعد ان اتم جملته هذه ملأ قدح الشراب واخذ يسمع ابا ذكار الذى انطقته الطبيعة فى تلك الساعة الفجيعة بهذا البيت

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق اويغادى

وبينما كان الرشيد يستنشد اباذكار باقى الابيات كان مسرور فى طريقه الى قصر البرامكة وعندما وصل هناك دخل على جعفر فى غرفته بغير اذن وقال له

ـ الخليفة يطلبك

وبينما كان جعفر غارقا فى لجج من افكاره عاوده مسرور بقوله

— نعم ان الخليفة قد طلبك

— لقد سرتنى بمجيئك وسوأتني بدخولك علي بغير اذن

ـ الذى جئت له أجل ، أجب امير المؤمنين الى ما يريد بك . فقام جعفر مع رجال حاشيته ورافق مسرورا الى قصر الخلافة وهناك ظل رجاله على الباب ودخل ومعه مسرور الى الحديقة وعطفا الى غرفة مخصصة لذلك على الطريق وهنا قال له مسرور

ـ ان الخليفة يطلب رأسك .

صعق جعفر فى مكانه على أثر هذه الجملة وتضعضع أمام هذه الضربة القاضية ووقع على رجليه يقبلهما ناسيا عزة نفسه ووقاره وقال مسترحما

ـ بربك ياأخى عاود أمير المؤمنين ، فآن الشراب قد حمله على ذلك بل أمهلنى الليلة فانه نادم عن قوله غدا

ـ تناديني الآن بقولك ياأخى وكنت قبل اليوم تأنف من مصافحتى . انى الآن لاأرحمك ولا أرحم شبابك ، قد أمر الخليفة ان تموت الليلة وليس لدى سوى هذا الامر

ـ لتكن حياتى فداء الخلافة ، ليكن الموت جزاء اخلاص

دام ثمانية عشر عاما وانما أريد أن أعرف منك أمراً واحدا قبل قتلي أريد أن اعلم ذنبي الذى استحق عليه الجزاء

فنظر اليه مسرور شزراً وقد نطق بهذه الكلمة :

ـ العباسة

ما كاد جعفر يسمع بذلك حتى قام من مكانه مدهوشا وقدامت فى سماء مخيلته فكرة واحدة هى ان يموت فداءها اذ ربما انقذ العباسة بموته فقال:

ـ دعنى أدخل داري فأوصى

فنظر اليه الجلاد بغضب وقال

ـ لا سبيل الى ذلك

لم يطق جعفر صبراً على أثر الجملة الاخيرة فهاجت أعصابه وهجم على مسرور متردداً يريد خنقه إلا أن الجلاد تمكن من أن يتملص منه وفر الى زاوية من الغرفة وكان يعلم بأن العباسة مائته لامحالة فصاح يقول

ـ قد قتلت السيدة العباسة

وقعت هذه الجملة كالصاعقة على رأس جعفر فهدت كل قواه وأفقدته الرشد والوعى فهرع نحو الجلاد جاثيا

متمتما هذه الكلمات

— ماانتظارك اذن ، لماذا أعيش بعدها ، عجل لتريحني من هذه الحياة . هكذا سلم نفسه لجلاده وعلى هذه الصورة المفجعة قتل جعفر البرمكي بالغا من عمره ثمانية وثلاثين حجة في عام ١٨٧ من الهجرة

بعد أن قطع مسرور رأس جعفر قدمه للرشيد على وسادة من الاطلس فأمر بتعليق تلك الرأس التي أحب صاحبها وصادقه زمنا على جسر بغداد وأن تحرق بعد ذلك مع الجثة وان يقتل كل من يتشدق بكرم البرامكة ومروءتهم ومن يرثيهم بعد نكبتهم . اما منصب الوزارة فقد اسند بعد جعفر الى عدوه اللدود الفضل بن ربيع حاجب قصر الخلافة سابقا

ومن عجيب ماوقع فى ذلك ماورواه العمراني المؤرخ قال حدث فلان قال :

« دخلت الديوان ، فنظرت فى بعض تذاكر النواب فرأيت اربعمائة الف دينار ، ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن

فغطوا بواري، لاحراق جثة جعفر بن يحيي فعجبت من ذلك،

هكذا يريد القدر ومن يستطيع الوصول الى حكمة ذلك ؟ مسكين انت ياجعفر قد صرت مظهراً لقول القائل

« ان كان يا لك نصيبك الظلم والاسف فى هذه الحياة وقد تنالها من الاصدقاء قبل الاعداء »

الفصل السابع

على أثر هذه الجناية قام الرشيد ومعه مسرور الى قصر اخته العباسة وكانت فى الطابق الاسفل لم تذهب الى فراشها بعد ، تعد معدات السفر الى خراسان في اليوم التالى . دهش أهل القصر من حضور الخليفة فجأة بعد نصف الليل فهرعوا الى العباسة مذعورين يختلج الخوف فى افئدتهم يخطرونها بالامر

وقد اقتربت وصيفتها التى لم تفارقها طول الحياة ترجوها النزول من الشرفة الى الحديقة فالهروب عن طريق الدجلة إلا أن العباسة اكتفت بأن تقول:

— بنات هاشم . لا يعرفن سبيلا للهروب

قالت كلمتها تلك وقامت من فورها لتستقبل أخاها. تلاقت معه فى أول ممشى من مماشى القصر فسلمت عليه باحترام إلا أن الرشيد لم يجاوبها بل ظل يسير ساكتا حتى الغرفة التي اعتاد أن يجالسها فيها

وبعد ان جلس على مقعد قال لاخته

ـــ اوصدى الباب

اوصدت العباسة باب الغرفة وعادت هادئة ساكنة وكان الرشيد ينظر لى وجه اخته مدهوشا وقال لها :

ـ أتعلمين سبب مجيئي اليك الليلة ؟ ان كنت جاهلة ذلك فها أنا ذا مخبرك . جئت لاسمع من فمك مخالفتك لى وخيانتك لبنى هاشم . فأنت باختى بعد الآن . قولى ما تريدين ان تقوليه قبل ان تفارقى الحياة .

فأجابته العباسة بهدوء بال

ـ لم ارتكب أولا مايشين بسمعة بني هاشم ولم اخالف ثانيا امرك ولا اعاب الموت كما علم . انى انا وانت من اسرة واحدة رغم انكارك ولكننى لم افهم ماتريد ان تقوله . فهل لك ان تفصح ياأمير المؤمنين ؟

ـ قد فات أوان التزييف اعترفي ليتم كل شيء فأني عالم بالامر وقد سمعت قصة جعفر ولا أستطيع ان أصفح عن مخالفتك لأمرى واختلاطك بجعفر ، ذلك المملوك الفارسي ، ولا يمكن أن أنسى تلاقيكما معاً . انني نافر منك فيجب ان تموتى

بهتت العباسة ووقفت جامدة وسط الغرفة لاتبدى

ولا تعيد ولا تستطيع أن ترفع عينيها من وجه حيها المنقد بنيران الغيظ والغضب فصاح الرشيد يقول:

ـ تكلمي انى منتظر لجوابك .

فأجابته بصوت متهدج كأنما كانت تصحو من كابوس مريع .

ـ انى حليلة جعفر أحببته واعتمدت عليه . وما أحللته من نفسى هذا المقام إلا لاجلك ولما فيه من مزايا ومواهب فاذا كان ذلك جرما فلتقض على حياتى إنى بين يديك وانى اخطرك بأمر فيه صالحك ونفعك . لاتقتل ذلك الذي تقول انه مملوك فارسي ، ذلك الذى صير بغداد والدولة على نحو ماترى ورفع من شأن البلاد[1] . انك ان فعلت ذلك

---

(١) صدقت الاميرة فيما تثبته هنا على لسان العباسة . حقا ان جعفر هو الذى رفع من شأن بغداد وجعلها عاصمة الخلافة مهد الحضارة ومهبط المدنية والعمران . لقد اشرف الرشيد في ظل البرامكة ونسى آثارهم فى تنظيم الدولة من عهد جدهم خالد . ألم يكن خالد من اكبر اعوان ابي مسلم فى نقل الدولة من الامويين الى العباسيين تناسى الرشيد في نكبتهم ما كان من نجدة خالد لجده الى جعفر

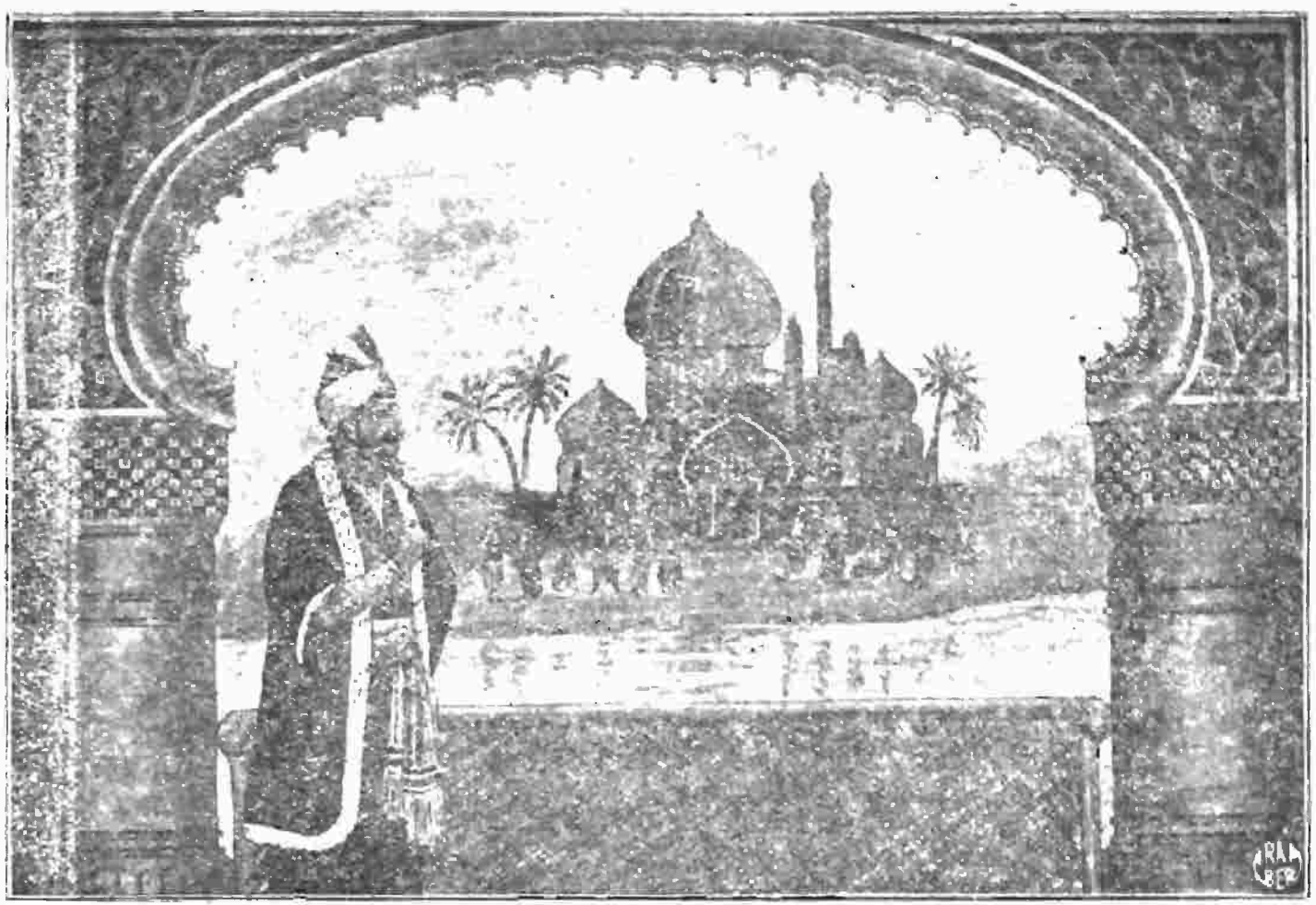

هارون الرشيد يراقب الجموع المحتشده حول قصر جعفر من شرفة قصره

يذكرك التاريخ ويذكر ايامك بالعار . ان كنت تريد ضحيه فها أنذا . سكن ثائرة غضبك بالقضاء على حياتي . ولكن انا ماخالفت لك أمراً . اذا كان احترام عقد أمضيته أنت بيدك يعد خيانة فانهمني . تذكر المولى واخش الآخرة ان العدل الالهى سيذكرك موقفك هذا

المنصور عند ماقتل ابا مسلم فثار الفرس والاكراد عليه ناهيك بما كان من تدبير شئون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده و يد ابنه يحيى وحفيديه الفضل وجعفر

البرامكة كانوا جمال الدولة وقوام ابهتها وكانت بغداد ملآى بآثار فضلهم وجهودهم . اقاموا فيها المكاتب وحلقات الدروس ومنازل الجند والملاجئ . ومجالس القضاة وغرف الشرطة .

روجوا العلم والفلسفه وشجعوا أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس بما كانوا يبذلونه لهم من الاعطية . وما ينفقونه في هذا السبيل من الرواتب وكفى يحيي بن خالد فخراً أنه أول من عنى بنقل المجسطى من اليونانية الى العربية .

سعوا فى جمع الكتب من الهند وسواها واستقدموا نطس الاطباء من مختلف البلاد لترويج صناعة الطب و يكفي الفضل بن يحيى من الاثر الجميل في عمران بغداد انه أول من سعى في استخدام الكاغد (الورق) فانشئت له المعامل في بغداد

ففزع الرشيد من مكانه حانقاً وعيناه تتقدان بنيران الغيظ وهجم عليها يقول:

ـ قد جاوزت الحد .ألمثلي هذا القول . رباه لاأستطيع احتمالا . انت مجرمة فيجب ان تموتي . كنت قد قيدت العقد بشرط أنت الآن تتجاهلينه

ـ كلا لم أنسه ولكن هل هو شرط مشروع ؟ أتجوز امثال هذه الحيل فى ديننا الحنيف ؟ لم ارتكب امراً يخالف الشرع وانما أنت الذى تريد ان تحرم ماحلله الله . ألا اتق الله فى نفسك ياهارون اين ايمانك ؟ الم نتشأ معا ؟ الم نعطف على بعضنا منذ الصغر إن قتلتنى اذهب ضحية على مذبح غرورك . اما جعفر فانت تعلم شهامته ومزاياه حق العلم ولن تجد من يسد فراغه فان كنت مصمما على ضحيتها فها أنذا بين يديك . أنزل سوط غضبك على بريء واحد ولاتلوث يديك بجريمتين

لم يتمالك الرشيد نفسه عند سماعه الجملة الاخيرة فصاح زمجراً:

ـ ادفاعاً عنه امامى . ستموتون انتم الثلاثة : انت وهو وحسن . انا الخليفة لامرد لأمرى

﴿ العباسة (للرشيد) لاتلوث يديك بجريمتين ﴾

فحرك اسم (حسن) عواطف الامومة فى نفسها فارتمت عند قدمى اخيها تصيح

ـ بربك اصفح ولا تقتل طفلا بريئاً معصوما ياأمير المؤمنين . انك والد فاتق الله انا لاأطلب الصفح من اخى انما ارجو الغفران من الخليفة هارون الرشيد

كانت العباسة تبكى بكاء مرا . وهى لم تفقد حرارتها حتى تلك اللحظة ولكنها اضاعت كل شىء واظلمت الدنيا فى عينيها واصبحت يائسة مفككة الاوصال عندماذكر مقتل ابنها

لم يعبأ الرشيد بتوسلاتها ولم يحركه بكاؤها بل قال

ـ كل هذا لايجدى . قد قلت كلمتى الاخيرة

ونادى مسرورا بعدذلك ففهمت العباسة قصده فاعتدلت ووقفت شامخة برأسها تستشهد وتستغفر

دخل مسرور وانحنى امامها ولكنها لم تحفل به ولم تتنازل الى رد السلام وانما حولت وجهها الى الكعبة ، مقر ابنها الحسن وقد كانت تظنه على قيد الحياة ، تدعو المولى أن يكلأه بعين عنايته وتحولت بعد ذلك نحو قصر جعفر وفي

لحظة أطار مسرور رأسها بضربة واحدة من سيفه فوقع على الأرض متدحرجا حتى اقدام الرشيد . . !

تلكما العينان الجميلتان كانتا تنظران الى الرشيد تفكران انه بقضاء الآخرة عند ماينصب ميزان الاعمال . فارتعشت روحه داخل جسده وقام من فوره يأمر مسروراً بان يعجل فيما ندبه اليه . فوفد الغرفة عشرة رجال حفروا وسطها حفرة واروا فيها الجثة وبعد اتمام العملية أمر الرشيد بقتلهم وبأن ترمي أجسادهم في الدجلة

عند ماتمت الفاجعة وخرج الرشيد من غرفة ضحيته كان لمعان الصبح قد بدا وكانت اضواء الصباح الوافدة الى الغرفة من حديقة القصر تنير هذا المرقد الابدي بهدوء وجلال

انقضى عمل الرشيد والتأمت جراح غروره فأدار أكرة الباب استعدادا للخروج ولكن ما كاد يفعل ذلك حتى ارتد قليلا من تأثير أنوار الصباح ! هجم الضوء الى الغرفة من خلال الباب وملأت ارجاءها أشعة الشمس الآخذة في البزوغ مارة في طريقها الى الغرفة بالورود والزهور

وخمائل القرنفل والياسمين فتصنع من ألوانها وروائحها الزكيه باقة معنوية تضعها باحترام واجلال فوق مضجع العباسة

كانت الطبيعة رغم اشراقها كئيبة مطرقة ، هادئة يكسوها جلال الموت كأنما هي ايضا تبكي العباسة وقد كانت زهرة من زهراتها

لو وقع مثل هذا الغرور فى أوائل الاسلام لدهشنا ووقعنا فى مهاوى الحيرة غير أن حدوث هذا السف فى القرن الثانى من الهجرة فى ذلك الدور العظيم يأخذ بيدنا الى مناهج التفكير العميق . انى لاتحاشي تدقيق ومحاكمة هذه الفاجعة المؤلمة التى سودت صحائف الرشيد فالزمان قد قاضاه

ان هارون الرشيد ، رغم صفاته وفضائله ، رغم مزاياه ومناقبه قاتل سفك دماء جعفر ولم يقدره حق قدره

قد لوث يديه بدماء بريئين . فلا جوده ولا كرم طباعه ولا شهرته ولا استفحال نفوذه تشفع له أو تزيل اثر الدماء من يديه

عند ما نقرأ تاريخ حياته تثور نفوسنا وتتمرد بنا لنا نعلم ان مقابلة الاحسان بالاساءة كانت من صفات الاقدمين لاسيما ايام حكومتي روما واليونان ولكننا قد نعذرهم ونتشبث في ايجاد المبررات لهم لانهم كانوا محرومين من نور العدالة الاسلامية . اما الرشيد فمسلم ومن بني هاشم. فكان لزاماً عليه أن يتحلى بالمروءة ولكنه فضل ان يظهر بمظهر المستبد المغرور .

وانني كامرأة رأيت من واجبي ان أنقل سيرة الرشيد المعروفة كثيرا وتاريخ حياة جعفر المعروف قليلا وحياة العباسة المحاطة بالغموض والابهام على هذا الوجه البسيط

الخاتمة

كلمة

لم تعن الاميرة بأيراد خاتمة لهذه المأساة المفجعة مع ان كتب التاريخ والادب طافحة باخبار البرامكه ووقائعهم وخاتمتهم السيئة ، اذ كان همها مصروفاً الى ابراز شخصية العباسة وتصوير نفسيتها فحسب . الا انني رايت اتماما للفائدة أن اقتطف هنا خاتمة صغيرة من (عقد الفريد) ورواية « العباسة » تأليف فقيد العلم والتاريخ جورجى بك زيدان و (الفخرى) لابن طباطبا وسيري القارىء في الخاتمه انها تتمشى في سياقها مع رسالة الاميرة وان كانت لاتجاريها في الاسلوب التحليلى المعروف عن قلمها .

الخاتمة

— ١ —

الرشيد ورأس جعفر

قد علمت مما تقدم ان الرشيد هو الذي امر مسرورا ان يفعل مافعله ودبر هذه الحيلة في ادخال جعفر قصر الخلد منفردا على تلك الصورة وقد ظل الرشيد بعد خروجه ساعة يخطر في تلك الدار ذهابا وايابا ويعمل فكرته قبل الاقدام على ذلك الامر العظيم ويتردد بين التعجيل والتأني لعلمه بما للبرامكة من المريدين الذين يبذلون ارواحهم في سبيل نصرتهم ولكنه اصبح بعد توالي قلقه وطول سهره وهو لم يذق طعاما ولا شرابا لا يزداد الا نقمة وغضبا — والارق وحده يورث ضيق الخلق وحدة الطبع مع ضعف القلب فكيف اذ رافقه القلق والاضطراب — فخاف الرشيد اذا اجل الفتك ان يعلم جعفر بمقتل العباسه فيتأهب للدفاع وربما انقلب الامر الى عكس المراد . وكان من الجهة الاخرى يحب جعفرا حبا شديدا وقد ربيا معا وتعاشرا على غير كلفة وكان يعده اخا له فيشق عليه قتله . ولكنه كلما خطر الحب بذهنه اعترضه

ماحفظ عليه من خيانته ومس عرضه فيقف شعره ويقشعر بدنه فلا يرى راحة الا بالاصرار على قتله.

قضى في ذلك حيناً وهو يتمشى في الدار منفرداً واستغرق في تلك الافكار حتى نسي نفسه ولو دخل عليه احد في تلك الساعة لرآه يسرع في مشيته تارة ويبطىء أخرى بين اطراق وتصويب يحك ذقنه او يشير بانامله تهديداً ووعيداً واستهالا وترددا لاينتبه لشيء مما يكسو جدران تلك القاعة من الستائر المطرزة او الطنافس الموشاة كأنه لايرى من الالوان غير السواد وربما وقف لحظة امام ستارة ليقرأ ماعليها من الاشعار او ينظر فيما يكسوها من الاشكال وقد يقرأ البيت أو الفقرة فلا يفقه لها معنى لاستغراقه في الهواجس فاتفق انه وقف امام اسطوانة بجانب سريره قرأ عليها بيتين استفزا عزيمته وقضيا بامضاء امره وهما :

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لايستبد

وكان مترددا وقد تضاربت في ذهنه عوامل الاقدام والاحجام وتساوتا كانهما في كفتي ميزان وقد توازنتا فأى

شيء اضيف الى احدهما رجحها . فلما فرغ من تلاوة هذين البيتين حتى رجح عنده الاقدام فصمم على الفتك فصاح « مسرور »

فدخل بأسرع من لمح البصر فأوصاه بما يعمله على نحو ماتقدم ، ومكث في القاعة ينتظر رجوعه وهو على احر من الجمر حتى جاء بالحيلة التي انتحلها جعفر لعله يصفح عنه فيرده واستعجله بالقتل فرجع وضرب عنقه وحمل عنقه وهو نابض عليه من لحيته فتدلى الرأس مقلوبا والدم يشخب من اوداجه ويسيل على خديه وعينيه وشعره .

دخل مسرور بالراس والرشيد جالس على السرير فطرحه على وسادة بين يديه وتنحى في بعض جوانب الدار . فلما وقع نظر الرشيد على ذلك الرأس أحس بزوال الخطر ولكنه لم يتمالك عن الاسف فامتقع لونه وجاشت عواطفه وتذكر سابق الحب بينهما فنظر الي الرأس هنيهة وبيده قضيب من الابنوس المطعم بالعاج تعودأن يتلاهى به وهو جالس فجعل ينكت البساط به ويخاطب الرأس قائلا :

ـ ياجعفر ! ألم أحلك محل نفسي ؟ . . ياجعفر ما كافأتني

ولاعرفت حقى . . .ولاحفظت عهدى . .ولاذكرت نعمتى ولا نظرت فى عواقب الامور . . ولا فكرت فى صروف الدهر . . ولا حسبت لتقلبات الايام واحوالها حسابا . ياجعفر خنتنى فى اهلى وفضحتني بين العرب والعجم . ياجعفر أسأت الي والى نفسك وما تفكرت فى عاقبة امرك .

كان يقول ذلك والقضيب بيده ينكت به البساط او ينقر به اسنان جعفر كانه يستنطقه ومسرور واقف يسمع ويرى ولو كان له قلب لانفطر ولكنه كان فظا قاسيا

وبينما الرشيد يخاطب جعفرا بمثل ما تقدم ويعاتبه ومسرور لايجسر على حركة ولا قول اذ سمعا وقع خطوات مسرعه نحو الباب مازالت تقترب حتى سمعا قرعا وقائلا يقول:

ـ السلام على امير المؤمنين أأدخل .

فاجفل الرشيد لانه عرف صوت اسماعيل بن يحيى(١) فاشار الى مسرور ان ياخذ الرأس ويمضى ففعل وخرج من باب فى الجانب الاخر من القاعة ولم ينتظر اسماعيل جواب الرشيد فدخل

(١) عم الرشيد وممن لهم مكانة فى نفس الخليفة

أما الرشيد فما كاد يرسل بصره نحو الباب حتى رأى اسماعيل داخلا والبغتة بادية فى وجهه وحول قلنسوته عمامة لم يحسن هندامها ولا سرح لحيته أو أصلح من شأنه كما ينبغى فى مقابلة الخليفه

فلما رآه الرشيد داخلا تجلد ورد التحية واشار اليه ان يجلس

فجلس على كرسي بعيد عن الرشيد وهو يلهث حتى يكاد يختنق من العجلة فنهض الرشيد ومشي نحوه وحاول الا بتسام رحيبا ولكن التأثر باد على تجلده وكظمه :

اما اسماعيل فلما راى الرشيد واقفا وقف تأدبا فامره بالجلوس وجلس الى جانبه وقد ادرك ان اسماعيل انما جاءه في ذلك الحين لامرهام فاستعجل فى الاستفهام منه عن غرضه فقال اسماعيل:

ـ جئتك شافعا يا امير المؤمنين . . وان ابيت فمستمهلا لمرك الى حين

- ٢ -

قضى الامر

فلحظ الرشيد انه جاءه بشأن جعفر واستغرب اطلاعه على امره مع احتياطه في الكتمان

فلما سمع الرشيد قوله وعلم أنه يشفع اليه في جعفر تجاهل وقال

- ان شفاعتك مقبولة واحرك نافذ ولو على ولي العهد

فاستبشر اسماعيل وقال

- اطال الله بقاء امير المؤمنين وحفظ نجله . . وانما أنا اشفع اليك في وزيرك جعفر :

فهز الرشيد راسه وقال :

— جئت متاخرا يا ابن العم وقد نفذ القضاء :

فلما سمع اسماعيل قوله اجفل وتراجع وقال

- قتلت جعفرا !

قال « قتله غدره »

قال : - قتلته يا امير المؤمنين؟ قتلت وزيرك وصاحب خاتمك.

و مدبر دولتك ؟

قال : — لاسبيل الى اطالة القول ياسماعيل .. ان وزيري هـذا قد قتل بخيانته ولو علمت ماارتكبه وانت هـاشمي لحكمت عليه بالقتل .

فحسبه يشير الى مايتهمونه من حب الشيعة العلوية باطـلاقه ذلك العلوى وقد تفاوضا فى ذلك من عهد غير بعيد وكان اسماعيل يعتقد انه لا يستحق القتل لاطلاعه على سعى اعدائه ووشايتهم به فقال :

— الم يكن أمير المؤمنين قدعزم على ابعاده الى خراسان ليفكر في شأنه ؟

فاجاب :

— كنت عزمت على ذلك ثم رأيت التفكير فى امره وهو فى قبضتنا أقرب الى صيانة ملكنا و نيل مرادنا لانه اذ سار الى خراسان كان في اهله واحزابه .. واهل خراسان لايزالون ناقمين علينا منذ قتل جدى المنصور أميرهم ابا مسلم .. نعم انهم يعجزون عن مناوأتنا ولكنهم يشغلوننا عن سداد

الرأى أن تدارك الخطر قبل وقوعه .

— رأى أمير المؤمنين أصوب . . ولكن حساد جعفر كثيرون وقد وشوا به وكثروا ذنوبه وبالغوا بالطعن فيه وأمير المؤمنين من حرصه على الخلافة لبنى هاشم عجل بقتله وربما كان استبقاءه أنفع لمصلحة الدولة ولكن قضى الامر . فلما سمع الرشيد تعريضه بذكر الواشين أراد ان يسترق منه أخبارهم لينتقم منهم اويجتنب اذيتهم فقال .

— وهل انت على يقين من ذلك ؟ ومن هم الواشون؟

فهم اسماعيل أن يطلعه على مايعلمه من سعي ابن الهادي والفضل بن الربيع وغيرهما ولكنه أمسك لسانه واعمل فكرته فرأي التصريح يزيد الخرق اتساعا ويزيد الدولة تضعضعا وارتباكاً وهو حريص على صيانتها . فلو كان جعفر حيا لكان الخطر من التصريح قليلا اما وقد قتل فأصبح ذكر الواشين والاقرار باقوالهم واعمالهم وشاية أخرى فندم علي مابدر منه وعزم على كتمان ذلك فقال .

— اذا كنت قد قتلت جعفرا فانها احدى المصيبتين فاذا ذكرت لك غيره جررت الدولة الى مصيبة اخري فليعفني

أمير المؤمنين من ذلك وهو يعلم رغبتي في سلامة هذه الدولة ووقوفي عصيتني في ماأردته من تبرئة جعفر فلا تكلفني الوشاية بآخرين ولو علمت في ذلك خدمه نافعة ماكتمته فأطعني في هذا واعلم اني انما اكتمه رغبة في خير بني هاشم كما كان تصريحي ببراءة جعفر لنفس هذا السبب . . واتقدم الى الرشيد أن لا يعد إبائي وقاحة . . واذا عده كذلك فله ان ينتقم بما شاء . . اني لا أبخل بروحي في سبيل هذا الكتمان. وكان الرشيد يجل اسماعيل ويعتقد اخلاصه وصدق نيته ويضن بحياته فقال :

— ان حياتك عزيزة علينا ياعماه وحاشا لله أن نسيء الظن بك وهب إنك عصيتنا فانما تعصانا لتنفعنا واما جعفر فلو كان ذنبه قاصرا علي ماعلمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة لصبرنا عليه واحتطنا له كما صبرنا فيما مضى لأن الحيازه قديمة لم يكن جديدا علينا ولكنه ارتكب ماهو أفظع من ذلك كثيرا . . . ارتكب مالو علمته لسبقتني الى قتله به . . لا تسألني عما ارتكبه فاني حريص على كتمانه ولو علمت ان يميني علمت به لقطعتها قال ذلك واشتد غضبه وزاد انقباض

أسرته وارتجفت شفتاه حتي رقصت لحيته .. ثم هز رأسه وقال :

ـــ آه . . آه . . لو أستطيع قتله مرة أخرى لفعلت .

فتهيب اسماعيل من غضب الرشيد ولم يفقه الامر الذي سمعه يلمح اليه فان خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رأيه فتجاهل ولو رأى مجالا للكلام ماتكلم لئلا يجر الكلام الى الجدال بلافائدة الما به بشدة غيرة الرشيد علي العرض وحرصه على شرف بني هاشم فظل ساكتا

ثم سمعا الاذان لصلاة الظهر فنهض الرشيد ونهض اسماعيل واستاذن وخرج

اما الرشيد فامر صاحب وضوئه فجاءه بالماء فتوضأ وخرج للصلاة في الجامع فصلى بالناس جماعة ورجع الى داره فانفذ بعض خاصته للقبض على والد جعفر وأخيه وجميع اولاده وعلى قصورهم ودورهم واستباح ما ظلها فاستولى رجاله على ماوجدوه هنالك من الجواري واستبقوهم لخدمتهم

ووجه الرشيد مسرورا الي معسكر جعفر في النهروان

فاخذ جميع مافيه من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك

وأصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكه وحاشيتهم الف انسان وترك من بقى منهم لا يرجع الى وطنه وحبس يحيي بن خالد والد جعفر والفضل أخاه في مطمورة وامر بجثة جعفر فصلبت على جسر بغداد .

— ٣ —

قوة الحجة وحسن البيان

كانت أم جعفر بن يحيى - وهي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة - أرضعت الرشيد مع جعفر لأنه كان ربي في حجرها وغذي برسلها لأن أمه ماتت عن مهده، فكان الرشيد يشاورها مظهراً لاكرامها، والتبرك برأيها. وكان آلى وهو في كفالتها أن لا يحجبها، ولا استشفعت لاحد الا شفعها، وآلت ام جعفر أن لا دخلت عليه الا مأذوناً لها، ولا شفعت لاحد مقترف ذنباً

قال سهل بن هرون: فكم أسير فكت! ومهم عند فرجت! ومستغلق فتحت!

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر، وقذف بزوجها وبقية أسرتها في غياهب السجن بعد ايقاعه بالبرامكة - طلبت الاذن عليه في دار الياقوتة، ومتت بوسائلها اليه، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها. فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها، واضعة لثامها، محتفية[1] في مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد

(١) محتفية اي حافية

فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظئر [1] أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شهوة الحاسد الى شفقة ام الواحد . فقال الرشيد : ويحك ياعبد الملك أوساعية ؟ قال. نعم ياأمير المؤمنين حافية ! قال أدخلها ياعبدالملك فرب كبد غذتها وكربة فرجتها ، وعورة سترتها. قال سهل : فما شككت يومئذ فى النجاة بطلابها ، واسعافها بحاجتها ، فدخلت . فلما نظر الرشيد اليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، وأكب على تقبيل رأسها ، ومواضع تدييها ، ثم أجلسها معه فقالت:

- ياأمير المومنين أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفا لك الاعوان ويحردك بنا البهتان [2] وقد ربيتك في حجرى وأخذت برضاعك الامان من عدوى ودهرى .

فقال لها: وما ذاك ياأم الرشيد ؟

قال سهل . فأيسنى من رأفته تركه لكنيتها أحرا ما اطمعنى من بره بها أولا ؟ [3]

---

(١) الظئر العاطفة على ولد غيرها المرضعة له

(٢) الحرد : الغضب والبهتان . الزور

(٣) يريد أن تركه نداءها بأم جعفر أيسه مما طمع فيه من العفو عن آلها

قالت .

- ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه باكثر مما عرفه به امير المؤمنين من نصيحته واشفاقه عليه، وتعرضه فى شأن موسى أخيه .

- يا أم الرشيد أمر سبق ، وقضاء حم ، وغضب من الله نفذ

- ياأمير المؤمنين يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

- صدقت فهذا مما لم يمحه الله .

- الغيب محجوب عن النبيين، فكيف عنك ياامير المؤمنين ؟

قال سهل فأطرق الرشيد مليا ثم قال :

واذا المنية أنشبت أظفارها . القيت كل تميمة لاتنفع

فأجابت بغير روية:

- ما أنا ليحيي بتميمة ياأمير المؤمنين وقد قال الاول واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قول الله عزوجل (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)

فأطرق هرون مليا ثم قال .

ـ يا أم الرشيد أقول .

اذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكد

اليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين وأنا أقول:

ستقطع في الدنيا اذا ما قطعتنى

يمينك فانظر أى كف تبدل

قال هرون : رضيت .

قالت فهبه لى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« من ترك شيئا لله لم يوجده الله فقده »

فاكب هرون مليا ثم رفع رأسه يقول :

ـ لله الامر من قبل ومن بعد

فاجابت :

ـ يا أمير المؤمنين . (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) واذكر يا أمير المؤمنين آليتك ما استشفعت الا شفعتنى .

قال .

ـ واذكرى يا أم الرشيد أليتك أن لاشفعت لمقترف ذنبا

قال سهل : فلما رأته صرح بمنعها ، ولا ذعن طلبها ، أخرجت حقا من زمردة خضراء فوضعته بين يديها . قال الرشيد ماهذا ؟ ففتحت عنه فإذا من ذهب فأخرجت منه ذو ثبه وثناياه قد غمست جميع ذلك فى المسك فقالت ياأمير المؤمنين أستشفع اليك ، واستعين بالله عليك وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيى عبدك . فأخذ هارون ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى بكاء شديدا ، وبكى أهل المجلس ومر البشير الى يحيى وهو لايظن إلا أن البكاء رحمة له ورجوع عنه فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها : لحسن ماحفظت الوديعة . قالت : وأهل للمكافأة أنت . فسكت وأقفل الحق ودفعه اليها وقال ان الله يامركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها . قالت . والله يقول (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ويقول (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) ثم قال وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت : ما أقسمت لى به أن لا تحجبنى ولا تمهنى قال : يا أم الرشيد أتشريه محكمة

فيه : قالت . أنصفت وقد فعلت غير مستقيلة لك ولا راجعة عنك . قال . بكم ؟ قالت . برضاك عمن لا يسخطك . قال يا أم الرشيد أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ قالت . بلى ! أنت أعز علي وهم أحب الى . قال . فتحكمي فى ثمنه بغيرهم . قالت بلى قد وهبتكه وجعلتك فى حل منه وقامت عنه وبقي مبهوتا ما يحير لفظة .

قال سهل وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عبرة ولا سمعت لها أنة

— ٤ —

ذكرى طيبة

قال ابو نواس:

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم
بنى برمك من رائحين وغاد

ذكرى طيبة وشهرة عبقة ومكارم أخلاق وخصال حسان فسلام على الدنيا من بعدهم ، سلام على كرام كانوا غرة فى جبهة الدهر وتاجا على مفرق العصر .

سلام على تلك النجوم الزاهرة والبحور الزاخرة والسيول الدافقة والغيوث الماطرة .

أتانا بنو الامال من آل برمك
فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
فما خلقت الا لجود أكفهم
وأقدامهم الا لاعواد منبر

قيل ان الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة على ذلك فاجتاز

بعض الحرس ببعض الخربات فرأى انسانا واقفا وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة وهو ينشده ويبكي فأخذه الحرس فأتى به الى الرشيد وقص عليه الصورة فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك فاعترف به فقال له الرشيد أما سمعت تحريمى لرثائهم لأفعلن بك ولأصنعن

فقال :

ـ ياامير المؤمنين ان أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ثم بعد ذلك انت ورايك .

قال : قل

قال .

ـ إنى كنت من اصغر كتاب يحيى بن خالد وارقهم حالاً ، فقال لى يوما اريد ان تضيفنى فى دارك يوما ، فقلت يامولانا انا دون ذلك . ودارى لاتصلح لهذا ، قال : لابد من ذلك ، قلت : فان كان لابد ، فأمهلنى مدة حتى اصلح شأنى ومنزلى ، ثم بعد ذلك انت ورأيك .

قال كم امهلك ؟ قلت : سنة قال: كثير . قلت فشهوراً قال : نعم . فمضيت وشرعت فى اصلاح المنزل ، وتهيئة

اسباب الدعوة . فلما تهيأت الاسباب اعلمت الوزير بذلك فقال نحن عندك غداً . فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج اليه ، فحضر الوزير فى غد ، ومعه ابناه جعفر والفضل ، وعدة يسيرة من خواص اتباعه ، فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل وقال يافلان ، انا جائع . فعجل الى بشيء ، فقال لى الفضل ابنه: الوزير يحب الفراريج المشوية ، فعجل منها ما حضر ، فدخلت واحضرت منها شيئا فأكل الوزير ومن معه ، ثم قام يتمشى فى الدار ، وقال يافلان فرجنا فى دارك فقلت يامولانا هذه هى دارى ليس لى غيرها ، قال بلى ، لك غيرها ، قلت والله ما املك سواها قال هاتوا بناء ، فلما حضر قال له : افتح في هذا الحائط باباً فمضى ليفتح ، فقلت يامولانا كيف يجوز أن يفتح باب الى بيوت الجيران ، والله اوصي بحفظ الجار ؟ قال : لا بأس في ذلك ثم فتح الباب . فقام الوزير وابناؤه فدخلوا فيه ، وانا معهم ، فخرجوا الي بستان حسن كثير الاشجار والماء يتدفق فيه وبه من المقاصير والمساكن مايروق كل ناظر ، وفيه من الالات والفرش والخدم والجوارى كل بديع جميل فقال :

هذا المنزل وجميع ما فيه لك فقبلت يده ، ودعـوت له ، وتحققت القصة ، فاذا هو من يوم حادثني في معنى الدعوة ، قد ارسل واشترى الاملاك المجاورة لي ، وعمرها دارا حسنة ونقل اليها من كل شيء وانا لا اعلم وكنت اري العمارة فأحسبها لبعض الجيران ، فقال لابنه جعفر . هذا منزل وعيال فالمادة من أين تكون له ؟ قال جعفر قد اعطيته الضيعة الفلانية بما فيها ، وسأكتب له بذلك كتابا فالتفت الي ابنه الفضل وقال له : يابني ، فمن الآن الى ان يدخل دخل هذه الضيعه ما الذي ينفق ؟ فقال الفضل على عشرة الاف دينار احملها اليه . فأثريت وارتفعت حالي وكسبت بعد ذلك مالا طائلا ، انا اتقلب فيه الى اليوم فوالله ـ يا امير المؤمنين ـ ما اجد فرصة اتمكن فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم ، الا انتهزتها مكافأة لهم على احسانهم ولن اقدر على مكافأتهم فان كنت قاتلي على ذلك فافعل .

تمت الرواية والحمد لله